

أهل البيت عليهم السلام

فى بعض شعر الشريف الرضى

الدكتور حمودى

بسم الله الرحمن الرحيم

ها نحن اولاء فى أفياء دوحة العلياء ، نفىء إليها ولانسامتها ، وهل تسامت قاماتنا دوحة تضرب أطنابها فى أعماق نهج البلاغة ، وتشارف أغصانها قرص الشمس ؟ وهل لنا أن ندرك شأو شريف الشعراء ، ورضى الادباء ؟ من جده - صلى الله عليه وآله - أفصح العرب ومنها قريش ، ومن جده الادنى أمير المؤمنين عليه السلام ، صاحب السيف والنهج وكعبة عشاق الفصاحة ؟

ليس لنا - والله - إلا ثمالة من كأس ، وقطرة من بحر فرات لذة للشاربين ، ليس لنا - والله - إلا ذلك النزر اليسير ، لاننا ظلمنا الشريف الرضى حيا وميتا ، حتى رددت جنبات شعره صدى ألمه ، وها نحن اليوم - وبعد ألف عام - لانجد لاثاره من يتصدى لها بإخراج علمى رصين ، وتحديث يسيغه أهل هذا الزمان . لقد عرفنا من الشعراء من لا يصح أن يستفىء بشعره إلى ظلال تلك الدوحة الباذخة ، وأقمنا الحراس على آثار شعراء ليسوا أكثر من سفوح لهذه القمة التى سامت الشمس وأطلت على التاريخ ، أين الشريف الرضى ؟ أين ديوان شعره ؟ أين تراثه العريق ؟ أين الكلية التى تحمل اسمه ؟ أين الجامعة التى تتعطر بذكره ، بشعره وبنته ؟ .

إن هذه الثمالة التى نترشفها من سور كأس الشريف الرضى كثيرة علينا ، لا تتحملها نفوسنا التى بعدت عن عالم الكبرياء ، واخذلت إلى راحة الكسلاء الصغراء ، ولا تسيغها أطماعنا التى تتعجل الثمن الربيح ، ولا يرتضيها انهيارنا الثقافى الذى لا يصبر

ص: ٢٨٠

على لأواء الاخلاص والجد ، فلانقوى - بعد - على خوض غمرات تراثنا الاثيل ، وفى الربيئة منه تراث هذا الشاعر البطل النبيل .

سلام على الرضى ، وعلى من يعنى بالرضى ، وعلى من يسعى سعيا علميا دؤوبا مخلصا ليقرب الاجيال للرضى ويكشف عن عظمتها لها ، فتسيغه شملا لها فى أخلاقها وأشعارها وكبرياء العظمة ، والسمو العريق . وهذه السطور التى أكتبها رجوت لها أن تكون محاولة جادة للكشف عن جوانب شعر الرضى ، وموضوع من موضوعاته المحببة اليه ، وهو « اهل البيت عليهم السلام فى شعر الشريف الرضى » فى محاولة إجابة إسئلة ماذا يمثل أهل البيت (ع) بالنسبة له ؟ وأى حيز يحتلون بشعره ؟ وكيف نظر إليهم عليهم السلام ؟ والله أسأل أن يوفق قادة هذه الامة فى نهضتها الرشيدة الحديثة للعناية الجادة الصادقة برموز التراث وقيمته العالية .

ومن الله التوفيق والسداد ، وله الكمال وحده .

وقفه مع النسب الشريف للشريف :

هو أبو الحسن محمد ابن أبي طاهر الطاهر ذي المنتبتين : الحسين بن موسى بن محمد ابن موسى بن إبراهيم بن « موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » ، عليهم السلام .
وامه فاطمة بنت الحسين - بن أحمد ، علي قول - بن الحسن الناصر الاصم صاحب الديلم ، وهو أبو محمد الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن « علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » عليهم السلام ، وفي المذكور في النهج شيء من الخلاف .

ص: ٢٨١

ص: ٢٨٢

حياة مسؤولة :

ولد رضوان الله عليه سنة ٣٥٩ هـ ، وتوفي سنة ٤٠٦ هـ ، أي أنه عاش عمرا لم يتجاوز ٤٧ سنة ، والعبقريّة لا تعرف الاعمار ؛ نظم الشعر في بواكير عمره ، وكتب جملة كتب لم يتبق منها إلا ثلة قليلة لم تنل - بعد - الدراسة اللازمة والتحقيق المطلوب وقد عدوا له هذه الكتب:

١- نهج البلاغة .

٢- خصائص الأئمة .

٣- مجازات الآثار النبوية .

٤- تلخيص البيان عن مجازات القرآن .

٥- حقائق التأويل في متشابه التنزيل .

٦- كتاب : سيرة والده الطاهر .

٧- كتاب الرسائل .

٨- كتاب مدار بينه وبين أبي إسحاق الصابي من الرسائل .

٩- كتاب الزيادات في شعر أبي تمام .

١٠- مختار شعر أبي إسحاق الصابي .

١١- منتخب شعر ابن الحجاج « الحسن من شعر الحسين . »

١٢- كتاب أخبار قضاة بغداد .

١٣- كتاب تعليق خلاف الفقهاء .

١٤- كتاب تعليقة على إيضاح أبي على الفارسي .

١٥- ديوان شعره .

سبعة وأربعون عاما مثقلة بالمسؤوليات والنكبات ، ومحملة بأربعة عشر كتابا ، مع ديوان ضخم من الشعر ، سبعة وأربعون عاما تسمو عن أعوام الناس لان صاحبها كان الذي أمضى الشريف وهو يتحدى ذلك العصر الذي يتهاوى أكثر وأكثر في مواطن الذل والانهمزام النفسى ! !
هذه الحساسية ، وعظمة الشعور بسمو النسب الشريف ، شكلت هاجسا يوميا نلمسه

ص: ٢٨٣

في كل مواضع شعر الشريف الرضى ، وكانت حلبة واسعة لفخره ، ذلك الفخر الذى يتمفصل على محورين :
المحور الاول : المحور الذاتى ؛ ويتمثل فى الفخار بالخلق السامى ورفض الذل والتطلع الدائم إلى الافق الاعلى
من آفاق الكرامة الانسانية التى تفرضها الذات المتسامية عن صغار الدنيا كقوله رضوان الله عليه :
مالى اذل ، وصارمى لم ينثلم * بطلى العدى ، وقناى لم يتقصّد

حيث يستفهم استنفها ما إنكاريا عن رضاه بالذل إن حاول بعضهم أن يسمه به ، فكيف سيرتضى ذلك ، وسيفه « صارمى » لم يتنلم من ضرب أعناق « طلى » أعدائه ورمحه لم يتكسر ، أى ان دون إذلاله حرب لابد أن تقع بالسيف الذى يضرب أعناق الاعداء حتى يتنلم ، وبالرمح الذى يطاعنهم به حتى يتكسر . وتبلغ حساسية الكرامة مداها الاوفى بصرخته الخالدة عبر الزمن :

مقول صارم وأنف حميم كما راغ ما مقامى على الهوان ، وعنديوإباء
طائر وحشى > محللق بى عن الضنيب

فانه يتسأل منكرا ان يرتضى الإقامة على الهوان والذل ، ولديه المعول الصارم والانف الحمى ، وإلباء الذى يحلق عن الضيم والظلم وكأنه الطائر الوحشى فى نفوره وعلو طيرانه ، أو سمة رمزيه يطرز بها الشريف رفضه للذل والهوان ، المقول الصارم رمز إلى الجرأة فى القول ، والحزم تجاه مناوئيه ومن يريد إذلاله وإلحاق الهوان به ، والانف الحمى : رمز إلى العزة والكبرياء ، والانف عند العرب - من الانفة والترفع ، يستشعر ما يتطلبه منه نسبه ، ووضعه الاجتماعى ، من طهر ذيل ، وسمو نفس ، وعفة قلب ، وسعة علم ، إضافة للوازع الدينى والمذهبي الذى لم يتخل عنه الرضى الشريف فى أية خطوة خطاها فى عمره الطيب
لقد أدرك الشريف الرضى أن النسب الطاهر لن ينفع شيئا إن لم تواكبه حياة طاهرة تكون أهلا لحمل شرف الانتساب إلى دوحة النبوة :

أو عظم الامر فصبر جميلان مقام إن أشر الخطب فلا روعة ليهون المرء
المرء فيها قليل بأيامه

ص: ٢٨٤

كرامة البيت وعز القبيلوحسبنا الله ، هل نافع نفسك أذلتها إنا إلى الله ،
ونعم الوكيل وإنا له

فمال الامر كله إلى الله سبحانه وتعالى ، وكرامة البيت ، وعز القبيلة ، لن يغنيا المرء شيئا إن أذل نفسه .
هذه الرؤية الدقيقة للحياة وحقائقها تكشف لنا أنه (رض) كان ينظر إلى الكرامة والعزة باعتبارهما أمرين إلهيين لا محيد عنهما ، وإن الذلة طريق يناقض طريق الايمان ، فما دام المقام فى هذه الدنيا قليل فليستصغر المرء مجريات الحياة من آلامها وخطوبها ، بل فليستصغر الايام ذاتها ، وحينذاك لن يبقى فى وسع الذلة أن تتسرب إلى موقف الانسان مهما كان الخطب ، والامر كله لله .

لا حظ هذه الحساسية تجاه مواقف الذلة ، واعتبارها تقيض كرامة النسب وعزته ، ثم انظر تطبيقات هذه الحساسيه فى حياة الشريف وشعره ، وتصوركم هو عمق الالم عن الصغار ! ؟ . والإباء المخلق عن الضيم ؛ رمز إلى استسهال الصعاب فى سبيل الحفاظ على العزة والكرامه .
وهو لا يجدر عذرا للقبول بالذل ما دام معه السيف:

ل غلام فى غمده المشرفى
أى عذر له إلى المجد ؟ إن ذ

ثم ينتقل إلى السبب الذى يحدوه لاعتبار مقامه حيث هو ذلا ، إذ يقول:

وبمصر الخليفة العلوى ، إذا
ضامنى البعيد القصيس جميعا محمد
وعلى
ألبس الذل فى ديار الاعاديمن أبوه أبى
ومولاه مولالف عرفى بعرقه سيدا النا

أرأيت ؟ ها هو ذا يبين لنا ان بذاخة نسبه سبب اعتباره ان مقامه حيث هو ذلا ، فهناك حاكم علوى يلتقى بالنسب الباذخ معه ، فالاجدر أن يلتحق به .
وهكذا ينقلنا الشريف إلى المحور الثانى الذى هو مدار فخره :
المحور الثانى : محور النسب ؛ وهو فى قناعتنا الاساس الذى تتفرع منه مواقف الرضى فى شعره وغير شعره ، فهو ينظر إلى نفسه نظرة تاريخية باعتباره حلقة من سلسلة طيبة هو ملزم ذاتياً وموضوعياً أن يسير فى حياته على مقتضيات ذلك .

ص: ٢٨٥

إذا الامد البعيد ثنى البطاء وعطل بعض
جمعهم الفضاء أفاض على تلك
الكبرياء وإيماناً رطاباً ، واعتلاء إذا
ذب الجبان به الضراء إذا شئنا ادراعا
والاتداء أبى إلا اعوجاجا والتواء
إننا ابن السابقين إلى المعالي إذا ركبوا
تضايقت الفيا فينمانى من إباء الضيم
نامشأونا الناس أخلاقا لدانا ونحن
الخائضون بكل هولونحن اللابسون
لكل مجد أقمنا بالتجارب كل أمر

فبماذا يفتخر ؟ ما مادة فخره ؟

إن ما يميز الشريف عن كثير من الشعراء ان افتخاره باله ، وهو منهم ، متأث من المعانى الاخلاقية الاسلامية :

السبق إلى المعالى
كثرتهم فى الحرب
إباء الضيم
الكبرياء
الاخلاق الكريمة

الايمان العميق

العلو

الشجاعة

الجد فى طلب المجد

الجد فى طلب الاصلاح

البيت الأول.

البيت الثانى.

البيت الثالث.

البيت الثالث.

البيت الرابع.

البيت الرابع.

البيت الرابع.

البيت الخامس.

البيت السادس.

البيت السابع .

وتتفصل هذه المعانى فى سائر قصائد الشريف ، فيفككها إلى مكوناتها الاساسية ويوضح جزئيات أوصافهم ، ومثابة فخره بهم .

نظيرهم ولا الشعر الرقاباودار العز	فما ولد الاجارب من تميموإن المجد
والنسب القراباوأعلاهم إذا نزلوا	قد علمت معدلاطولهم اذا ركبوا
قبا	رماحا

ص: ٢٨٦

وأغزهم إذا سئلوا عطاء* وأوحاهم إذا غضبوا ضرابا

حيث ذكر بعضا من لوازم الشجاعة « طول الرماح » ، وعلو الذكر « القباب العالية » وكثرة العطاء « وأغزهم .. . » ، والقوة فى الحرب « أوحاهم ضرابا . »

وكيف لا يكونون كذلك وهم :

بنو عم النبى واقربوه* وألصقهم به عرقا لبابا

حيث يبين الشريف صفاتهم الكريمة لانهم من نسل النبى (ص) والمحافظين على القيم التى نادى بها ، ودعا الناس اليها .

ويصل من ذلك إلى أن المديح يجب أن يقتصر على الرسول (ص) وأهل بيته (ع :)

يرام ، وبعض القول ما يجنب ولايشكر وما المدح إلا فى النبى وآلهوأولى

النعماء إلا المهذب تحلق بالاشعار	بمدحى من أعز بفخرها رأى الشعر فيهم
عنقاء مغرب </nobr> وأدعو عليا	باقيا ، وكأنما أعد لفخرى فى المقام
للعلی حين أركب	محمددا

فالشريف لا يرى له وجوداً مستقلاً عن هذا الوجود التاريخي لال البيت (ع) ، ومن هنا تجذر حبهم فى قلبه ، وخالط دمه ولحمه :

ولو تماديت فى غى وفى لعبتفرقوا عن	المجد يعلم أن المجد من اربىانى لمن
نبى أو وصى نبى	معشر إن جمعوا لعلی

ويخاطب أباه فيقول :

وغير حنينى عند غيرك مصحبمناسب	وغيرك لا اطريه إلا تكلفاً بعد النبى
من يعزى لمجد وينسبويحسدنى هذا	والوصى تروقنييقر بفضلى كل باد
العظيم المحجبومادام لى فيكم مراد	وحاضرأحبكم ما دمت اعزى اليكم
ومطلب	

فهذا الوعى الحاد بالانتساب إلى أهل البيت (ع) أصبح جزءاً من حياة الشريف إن لم نقل انه غلف حياة الشريف كلها ، وتغلغل فى شتى نواحيها ، فحق له أن يقول :

أم من أطاول أم من الاحيكل منيع	فمن ذا اسامى وجدى النبيأنا ابن
الربى والبراحوان نفرت من أكف	الائمة ، والنازلينوأيّد تصافح أيدي
الشحاح	الكرام

ص: ٢٨٧

ح بين الظبى والوجوه الصباح	إذا استصرخوا عصفوا بالصبا
----------------------------	---------------------------

وبذاك ، وبسبب من ذاك أصبح واحدا من سادة يهيمنون على حركة الناس :

ونصيب منك ولا نصاب فى	إننا نعيب ولانعاب آل النبى ، ومن
حجورهم الكتابوالبيض والخيـل	تقلـخلقت لهم سمر القناقوم إذا
العراـب قنيهم كرموا وطابوا	غمز الزما

فهؤلاء هم سادة الناس ومرشدهم ، آل النبي (ص) الشجعان الذين لهم خلقت الرماح والسيوف والافراس ، هؤلاء القوم لا يزدادون إلا كرماً وطيبة كلما اشتد الزمان عليهم ، فكان الصعاب محك على ضريته يفوح عطر شمائلهم .

ومن هنا صار الشريف ذلك القمر الدائر في كون أهل البيت (ع) الرحيب ، وصار اعداؤه زمرة من الكلاب النابحة العاوية ، التي لم تجد فيه عيباً ، فحاولت أن تخلع عليه من عيوبها ، جرياً على « رمتني بدائها وانسلت » ، قال :

مقام البدر تنبحه الكلابوقد علموا	وإن مقام مثلى فى الاعاديرمونى
بأنى لا اعابوإنى لا يروعنى	بالعيوب ملفقاتوانى لاتدنسنى
السبابكسونى من عيوبهم وعابوا	المخازيولما لم يلاقوا فى عيبا

أعد نظرك فى الشعر الذى مرتجد الكرامة والكبرياء والعزة ، ولو لم يقل (رض) إلا « وإنى لا يروعنى السباب » لكفاه دلالة على عظيم اعتداده بنسبه وثقته بنفسه ، والنقة بالنفس لاتتأتى لكل الناس ، فإن منهم من يزلزله النقد ، ويفقده السباب صوابه ، لانه لا ثقة له بنفسه ، فكأنه التبتة الهشة التى ليس لها جذر مكين يمسكها أن تميل وأن تنقص ، اما الشريف فكالسنديانة الشامخة ، عميقة الجذور ، متمكنة من الارض ، قوية لا تتلاعب بها الرياح .

ولنا أن نقرر ان هذا الشعور بالانتماء إلى العترة الطاهرة (ع) هو المحرك لكل مشاعر الاباء والعزة والكرامة فى نفسه .
ولكن .

من هم اولئك الذين ينتمى اليهم الشريف الموسوى ؟ هل ذكرهم فى شعره ؟

ص: ٢٨٨

وكيف كان ذكره لهم ؟ وهل هو مقتنع بهم جميعاً أم متوقف ؟

والذى يحدونا لهذه الاسئلة ما حدث هو به - رضوان الله عليه - فى مفتتح رسالته « خصائص الائمة » إذ قال : « إن بعض الرؤساء ، ممن غرضه القدح فى صفاتى والغمز لقناتى والتغطية على مناقبى والدلالة على مثلية إن كانت لى ، لقينى وأنا متوجه ليلة عرفة من سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة هجرية إلى مشهد مولانا موسى بن جعفر ومحمد بن على بن موسى (موسى الكاظم ومحمد الجواد (ع) فى الكاظمية فى العراق) للتعريف هناك ، فسألنى عن متوجهى فذكرت له إلى انى قصدت ، فقال لى : متى كان ذلك ؟ يعنى أن جمهور الموسويين جارون على منهاج واحد فى القول بالوقف والبراءة ممن قال بالقطع ، وهو عارف بأن الامانة مذهبي ، وعليها عقدى ومعتقدى وإنما أراد التنكيل لى ، والطعن على تدينى فأجبت فى الحال بما اقتضاه كلامه . . » ، ثم جعل الشريف ذلك علة تجدد نشاطه لاكمال كتاب خصائص الائمة (ع) ، غير ان جمعه لنهج البلاغة ، ومعالجة المنية له ، قد حالا دون اكمال خصائص الائمة ، فظل الكتاب محتويًا على فضائل أمير المؤمنين (ع) فقط .

وإذا كان الكتاب - ونعني به خصائص الائمة - لم يستطع أن يستوفى ذكرهم جميعا سلام الله عليهم ، فإن شعر الرضى قد استوفى ذلك فحفل بذكرهم وتعطر بالاشادة بمنابهم وصفاتهم ومواضع مراقدهم الطاهرة .
ولنفتح قلوبنا لبائيته العذبة :

لباب الماء والنطف العذاب سقى الله المدينة من محل

فهو يدعو للمدينة بالسقيا ، وليس بمطلق السقيا ، إذ كانت تسقى بديم المطر العزيز مع الصواعق والرعود وما يروع أهلها الامنين ، بل هي السقيا بلباب الماء ، أى بجوهره وصافيه ونقيه من غير أوشاب ولا أكدار ، ثم هي السقيا بالقطر العذب السائع .
ولا عجب أن يدعو للمدينة المنورة بذلك ، لان فيها قبر جده الاعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيها أيضاً شئ آخر عزيز على قلبه :

رضى الذيل ملآن الوطاب وجاد على البقيع وساكنيه

ففى البقيع إضمامة من زهر لا يكفيها الطل ، بلا بد من الوابل ، لابد من أن يرخى السحاب عليها ذيله ، وأن يفتق وطابه الملاان ، فأولئك الائمة الاطهار ظلموا أحياء وظلموا

ص: ٢٨٩

أمواتاً ، والى اليوم تقوم شواهد الظلم الواقع عليهم ، فافترق حال محالهم عن قبر الرسول الاكرم (ص) ، وعن أزقة المدينة المنورة وساكنيها ، فهنا يكفى « الباب الماء والنطف العذاب » ، وهناك لا يكفى هذا بل يجب أن يكون منسجماً مع حال مراقدهم المقدسة من وفيير السقى ، وعزيز المطر .

من مشاهد أجداده الطاهرين وينتقل الشريف من البقيع اقرب مشهد

فما ان ينتهى ركب الحجيج إلى أرض العراق حتى يتقرى المرقد الطاهر لأمير المؤمنين (ع) فى النجف الاشرف ، أو الغرى :

معالمها من الحسب اللباب وأعلام الغرى وما استباحث

وأى حسب لباب إن لم يكن حسب على بن ابى طالب (ع) ؟ فتشمله دعوة السقى بوابل نمير المطر .
ثم يرحل إلى كربلاء وهى المنزلة الثانية بعد النجف فى طريق الحج العائد إلى العراق :
قضى ظما إلى برد الشراب وقبراً بالطفوف يضم شلوا

انظر إلى هذا الحس المرهف ، وكيف قابل بين الدعاء بالسقيا و « ظماً » أبى عبدالله عليه السلام فى موقعة

كربلاء ، فأى مطر ، وأى غيث ، وأى وابل ، وأى ظل يكون فى وسعه إرواء تلك المراقد المشرفة وقد « قضى » أصحابها ظمأً ، والماء على مرمى حجر منهم ؟

ويستمر الشريف فى سفرته التى تطوى الارض طياً بين سامراء - حيث الهادى والعسكرى (ع) وموضع الغيبة الشريف - ، وبغداد - حيث الكاظم والجواد (ع) - ، وطوس - حيث على بن موسى الرضا (ع) - ، فليسق المطر النмир تلك المشاهد المشرفة :

وسامرا وبغدادا وطوسا

هطول الودق منخرق العباب

هذى مراقدهم - عليهم السلام - وها هو الشريف الرضى يقف عليها بلوعة ويقول :

قبور تنطف العبرات فيها

كما نطف الصبير على الروابى

إن دموع الرضى تمنعه من وصفها ، لكن ذكاه وعظيم إحساسه باتمائه إلى الراقدين فيها ، يدفعه إلى أن يشبه الدموع التى يجريها محبو الائمة عليها بالسحاب الذى يسقى الروابى ويفيض عليها .

ص: ٢٩٠

إن فكرة السقيا لم تفارقه ، فكرة أن يستشهد الحسين (ع) وهو عطشان ويمنع من قطرة ماء ، فتتسع القطرة إلى السحاب ، وإلى المطر الغزير ينهمر لا على قبر عطاشى كربلاء فحسب ، بل تتسع لتشمل كل أرضحة أجداده الائمة الاطائب (ع .)

هذه الفكرة تجدها قوية السيطرة عليه ، حتى لتكون العمود الفقرى للقصيدة كلها ، بين رفعة القبور المشبهة بالروابى ، وبين السقى الذى ينهمر عليها من السحاب ومن دموع العيون ، فإن لم يستجب السحاب لملمتمس الشاعر فإن السراب سيستحيل ماء يتقطع على تلك القبور:

فلو بخل السحاب على ثراها

لذابت فوقها قطع السراب

يجب أن ننتبه هنا إلى المقابلة الذكية بين السحاب والسراب ، لامن حيث استحالة السراب إلى سحاب تولها بأهل البيت (ع) فحسب ، وإنما ايضاً من حيث أن المسافر - آنذاك - بين هذه المشاهد المشرفة يطالع السراب أمامه وهو يطوى الفيافى والقفار فيأخذه الإحساس الرهيف - إن كان من أهله - إلى امنية مستحيلة ، أن يتحول السراب المشعر بالعطش والموحى به إلى سحاب يبيل الثرى ويسقى القبور المطهرة .

وتبقى فكره السقيا والظمأ تجول فى جنبات مشاعر الشاعر :

سقاك ، فكم ظمئت اليك شوقا

على عدواء دارى واقترابى

فالسحاب يسقى ، والسراب يتقطع سحاباً ومطرأً عليها ؛ والشاعر ظمئاً إليها شوقاً فى حالى قربه وبعده ، وانظر إلى لفظة « عدواء » وما فيها من اللاواء إشارة إلى ألم البعد والظمأ لزيادتها ، والغلواء فى حبها والتبرك بها

ثم انظر إلى اللفتة الذكية بين بعد الدار واقتراب الشاعر ، فهو لم يقل انه بعيد عن تلك القبور ، فهو دائماً قريب منها ، وداره هي التي تبعد عنها .

واما قربه فيتمثل في زيارته لها ، وفي حمله معه دائماً شيئاً من ترابها :

وصوني فضل بردك عن جنايوما تجافى يا جنوب الريح عنيو لا تسرى
استحقت من ذاك التراب الى مع الليالى

وذاك التراب أيضاً ظمان ، فالظماً حس في كل ما يحيط بالشاعر ، ويبلغ الظماً بالتراب المقدس حد أن يقاد له الماء والسحاب :

وتنحر فيه أعناق السحاب قليل ان تقاد له الغواذى

ص: ٢٩١

ويرتبط الظماً عند الشاعر بالالام التي عاناها أهل البيت (ع) حيث انتقلوا في دنياهم من مصاب إلى مصاب ، فكان وفرة المصائب التي جابهتهم في حياتهم قابلاً هذا الظماً الذي يجلل أضرحتهم وتربتهم الطاهرة :

فيلفظهم إلى النعم الرغابتدير عليهم أما شرق التراب بساكنيهفكم غدت
كأس المصاب الضغائن وهي سكرى

وبهذا البيت ندرك السبب الذي حدا بالشاعر أن يستسقى المدينة لباب الماء ، وأن يستسقى قبور الائمة (ع) المطر الغزير ، لان هذه الغزارة من الخير « والماء والسقيا رمزان له » قد ناسبت كؤوس المصائب التي نالتهم في حياتهم ، ولكن الشاعر يدرك أن الماء والسقيا غير كافيين أمام عظمة أهل البيت (ع) ، فينتقل منها إلى تقرير حقيقة تناسب منزلة أهل بيت النبوة عليهم السلام :

على تلك المعالم والقباب صلاة الله تخفق كل يوم

ولانجد فرقاً بين سحاب تنصل شابييه ، وسراب يستحيل قطع سحاب وخفقان الصلوات ، فكأن الصلاة عليهم طيور خافقة بأجنحتها ، والصلة وثيقة بين الماء والطيور فلا تحوم الطيور إلا حول موارد الماء المشرعة الامنة ، فكأن الشريف بهذا البيت ينقلنا إلى جو استجابة دعائه بالسقيا ، بل إلى ما هو أبعد من ذلك ، إلى أن هذه القبور الطاهرة هي مشارع الماء الامنة التي تخفق حولها الطيور ، وليست تلك الطيور طيوراً حقيقية بل هي صلاة الله سبحانه وتعالى ، وأين تخفق الصلاة إلا على أهلها وموطنها ومستقرها ؟

وبعد أن يصل الشاعر إلى هذه الحقيقة يتحول إلى ذاته يستنبط منها حبها ، وينقع غليلها ، ويروى أوامها بزيارته لهم :

وإن قلت مساعدة الصحاب تطلع من	وإني لا أزال أكر عزمي وأخترق
تراب أبي تراب وينشب في المنى	الرياح إلى نسيم يودى أن تطاوعني
ظفري ونايتغلغل بين أحشاء	الليالي فأرعى العيس نحوكم سهام العلى
الروابي تغلغل بين قلبي والحجاب على	أن أبل بكم غلياً فما لقيكم إلا
كنز الغنيمة والاياب	دليل

ثم يلتفت إلى الامامين اللذين كان خروجه لزيارتهم سبباً لنشاطه في كتابه

ص: ٢٩٢

«خصائص الائمة» (ع) الامام الكاظم والامام الجواد (ع) ويصفهما بالملاذ فيقول :

بقربهما نزاعى واكتنا بيسلاما لا يحيد	ولى قبران بالزوراء اشقيأقود اليهما
عن الجوابويدراً عن ردائى كل عاب	نفسى واهديلقاؤهما يطهر من جنائى

وبالظهر يختم ذكرهم كما بدأ بالماء والسقى ، والدعاء لمشاهدهم المشرفة لينتقل - بعد هذا كله - إلى الافتخار بفضائل أمير المؤمنين (ع) وهى فضائل جده:

وساقى الخلق والمهجات حرى و فاتحة	قسيم النار جدى يوم يلقى به باب
الصراط إلى الحساب	النجاة من العذاب

لاحظ السقى ، والظمأ ، وهذه المفارقة بين عطش الدنيا وآلامها ، وبين أن يكون ذلك العطشان والظمان ساقى الخلق على الكوثر ، والاخرى بين رى الدنيا وزخرف نعيمها ، وبين المهج الحرى يوم القيامة ، وهو الساقى من كرم نفس ، وكرم طبع ، شهر بهما فى الدنيا فكانا له نصيبين فى الآخرة :

تضن بكل عالية الكعاب	ومن سمحت بخاتمه يمينى
----------------------	-----------------------

مفارقة اخرى بين الكرم بالمال ، والبخل بعالية الكعاب كناية عن الشجاعة والبطولة لان من اولى صفاتهما الحفاظ على السيوف والرماح فى اليد الصلبة القوية تواجه الاعداء فتقتلع حصونهم :

تصدق ، أو مناجاة الحبأفجاء النصر	أما فى باب خير معجزاتأرادت
من قبل الغرابوهذى الشمس تطمس	كيده والله يأبىأهدا البدر يكسف
بالضبايرى ترك العقاب من العقابمن	بالدياجيوكان إذا استطال عليه
لى ان يذكركم ثوابى	جانأرى شعبان يذكرنى اشتياقى

ثم يلتفت إلى نفسه فيأخذها بالسير على نهج أجداده الطيبين ، ويجهر بحبه لهم متقبلاً فيهم كل سباب
الاعداء ، لانهم نسبه وعماده ومبرر كيانه :

و عنكم طال باعى فى الخطا بلکم	بکم فى الشعر فخرى لا بشعربا جل
أرمى وارمى بالسباب وأنطق بالبراء	عن القبائح غير أنيفأجهر
ولا احابى	بالولاء ولا اورى

ص: ٢٩٣

وفى أيديكم طرف آتسايوز اترككم ولو	ومن أولى بكم منى وليا محبكم ، ولو
عقرت ركايبو مرجعنا إلى النسب القرب	بغضت حياتيتباعد بيننا غير اللياالى

إنها صرخات السجن الذى يعمقه الولاء حتى أدق خفاياه وحنياه ، والذى يظهر سطورا من الهيام فى
صفحات القلب الذائب فى حب آل البيت (ع) :

يرام ، وبعض القول ما يتجنبتحلق	وما المدح إلا فى النبى وآلهأرى الشعر
بالاشعار عنقاء مغربوأدعوا عليا للعلى	فيهم باقيا وكأنماعد بفخرى فى المقام
حين اركب	محمدا

* * *

وتصفح شعر هذا الشريف الرضى (رضى الله عنه) فلن تجد إلا الكبرياء تستقى من حب أهل البيت (ع) ،
والإنتماء الكامل لهم ، تعطراً بذكرهم ، وفخراً بالانتساب إليهم ودموعاً حرى تستحيل دماً وهى تطالع صفحات
الوضوح الاسلامى فى كربلاء - .

ولهذا موضوع آخر ، إن شاء الله .